افتقار الخلق إلى مواهب الحق

للأستاذ السيد محمد عبد الشافعى

لقد نطقت آيات الكتاب الكريم بما للمنعم سبحانه وتعالى من هبات لا تحصى إذ أنه جل شأنه من جليل صفاته أنه الوهاب الكريم و « وهاب » صيغة مبالغة تفيد دوام الفعل منه سبحانه والهبة : عطاء الجزيل من النعم بغير عوض ، ولذلك اختص به الحق تبارك وتعالى على وجه الحقيقة دون سواه ، إذ أنه ما فى عبد من العباد أجرى على يديه عطاء أو إحسان إلا وله فيه غاية وعلة وهى إما ثناء عاجل وإما ثواب آجل ومن أحسن إليك لتكون أنت طريقاً موصلا لمضاعفة الإحسان إنما هو فى الحقيقة محسن إلى نفسه ؛ قال تعالى : « إن أحسنتم أحسنتم لأنفسكم وإن أسأتم فلها » فالمحسن فى الحقيقة هو الله وحده ، وإن ظهر إحسان على يد غيره فهو المجاز .

أما الفقر : فهو فقدان ما أنت محتاج إليه - ويمكن تقسيم ما يحتاج المرء إليه بعد إيجاده على وجه الإجمال إلى أربعة :

(١) وجود يكون به قوامه .

(٢) رزق يتناسب مع نشأته الكونية ، ليكون وسيلة له فى القيام بما خلق من أجله أو ما خلق له .

(٣) شريعة من ربه تكون بها هدايته لمعرفة خالقه ، وتنتظم بها صلاته مع أبناء جنسه وعالمه .

(٤) توفيق للأخذ بأحكام هذه الشريعة ليتحقق له المقصود منها .

أما الأمر الأول : فذلك لأن الإنسان من جملة الممكنات ، والممكن لا وجود ولا عدم له من ذاته — ومن كان كذلك كانت الذاتية لغيره ، وليست هذه الذاتية

إلا لواجب الوجود سبحانه ، القائم بنفسه والمقوم لغيره. وإذا كان الوجود فى الإنسان ليس له من ذاته من حيث هو، كان فى غاية الفاقة والافتقار إلى مابه قوامه ، ولاقوام له إلا بواجب الوجود قيوم السموات والأرض ، ولاشك أن المرء إذا استشعر ذلك فى نفسه أدرك مدى مايكون قرب الحق منه . وشهود القرب منة وهبها الحق لك منذ افتقارك الذاتى إليه . فاكرم المتصدقين من وهبك من وجوده ما تقوم أنت به .

أما الأمر الثانى : وأعنى به الرزق — فقد اقتضت حكمة ربك سبحانه وتعالى أن تكون العلة الغائية للايجاد هى الإنسان ، وقد استلزم بقاء المرء على شاكلته هذه التى خلق عليها خلق العالم ، فالعالم وما حوى فى الحقيقة وسلة فى بقائه . وقد بين لنا ذلك كله كتاب الله تعالى حيث قال « خلق لكم ما فى الأرض جميعاً — وسخر لكم ما فى السموات وما فى الأرض جميعاً منه » ، فما من ذرة فى الكون إلا وهى قائمة بوجه من النفع لك ، كما أنها مرتبطة بغيرها فهى مقيدة للغير مستفيدة من الغير وذلك لارتباط جزئيات الوجود بعضها ببعض ، والكل وسيلة فى بقاء المرء ، كما أن الكل مستمر له . لذلك كان الكل نعمة قال تعالى (وإن تعدوا نعمة الله لاتحصوها إن الإنسان لظلوم كفار) ولا شك أن احتياج ذات المرء إلى هذه النعمة أمر لازم لاينفك عنه بحكم النشأة والطبيعة ، ولذلك كان الرزق مضمونا له ، طالما أن إرادة الله متعلقة ببقائه ، قال تعالى (وفى السماء رزقكم وما توعدون فورب السماء والأرض إنه لحق مثل ما إنكم تنطقون) وقال تعالى (ياأيها الناس أنتم الفقراء إلى الله والله هو الغنى الحميد) فالإنسان مفتقر إلى الله بذاته والافتقار الذاتى يقتضى نعمتين دائمتين مادام المفتقر باقيا ، وهما : نعمة الإيجاد ، ونعمة الإمداد وقد تحقق ذلك فيما تفضل به عليك فى وجود كان به قوامك ، وما أمدك به بعد ذلك من نعم : كل ذلك متعلق بوجودك وشخصك .

أما الأمر الثالث : فهو ما يتعلق بروحك ومعناك فكما أن للجسد إمداد حسى يتناسب معه فكذلك للروح إمداد معنوى آخر يتناسب مع طبيعتها وما تترتب من أجله ، ذلك الإمداد هو نور المعرفة بالله تعالى وأحكامه ، وهو المعبر عنه بالشرع الذى حدد لها طريق الهدى ، وأبان لها مايجب عليها نحو ربها الوهاب وخلقه

وانعقدت به الصلة بينها وبينه سبحانه على وجه يليق باستعدادها وكمال الله اللائق بذاته . وذلك لأن الروح وإن كان بها الإدراك إلا أنها ليست لها الهداية فى ذاتها وإنما الهدى هدى الله يهدى به من يشاء ، فلو أن الحق سبحانه وتعالى خلق الإنسان وأمده بكل هذه النعم الحسية الظاهرة ولم يتفضل عليه بما يهتدى به إليه لظل المرء حائراً فى ضلالة ، ولبغى بعض العباد على بعض ، وفسدت الأرض ومن عليها وليس ذلك هو المراد من إيجاد الكل . من أجل ذلك جاءت الشريعة ، بل جاء النور الإلهى لتبيان حقائق الأمور على ماهى عليه ، وإلزام الفرد بما يجب عليه نحو ربه ، والآخرين من أبناء جنسه ، فتم للروح الهدى وتحققت السلامة لكل فرد من شر كل فرد ، فحفظ الكون وتحققت الغاية من الإيجاد على النحو الذى أراده من خلقه ، فكان ذلك الفعل منه سبحانه إسباغ لنعمه الظاهرة والباطنة على عبده .

أما الأمر الربع : فاننا إذا نظرنا بعد ذلك بعين التأمل وجدنا أن الناس منهم من استجاب لله وللرسول حين دعاه إلى الهدى ومنهم من لم يستجب فحقت عليه الضلالة ولا شك أنه ما استجاب مستجيب لداعى الله بنفسه قط ، وإنما كان ذلك منه بتوفيق الحق له . قال تعالى (ولولا فضل الله عليكم ورحمته ماذكى منكم من أحد أبدا ولكن يذكى من يشاء) .

والتوفيق هذا — تفعيل من الموافقة . وله بداية ووسط ونهاية . بداية التوفيق إسلام . ووسط التوفيق إيمان . ونهاية التوفيق إحسان .

بداية التوفيق تحفظ الأبدان والأموال — ووسط التوفيق يحفظ القلب من ظلم الضلال والإضلال — ونهاية التوفيق تمتع الروح بمشاهدة ذى الجلال . وذلك فضل الله يؤتيه من يشاء والله ذو الفضل العظيم — من ذلك كله يتبين لنا أن المرء حينما افتقر إلى مابه قوامه وهبه ربه الوجود ، وحينما افتقرت ذاته إلى مابه صلاحها وبقاؤها أمدها بالرزق ، وحينما افتقرت الروح إلى الهدى أمدها بنوره ، وحينما افتقر إلى كمال عناية ربه أمده بتوفيقه وإذا فلاشىء مطلقا أدعى إلى ورود المواهب عليك إلا تصحيح الفقر والفاقة لديك (إنما الصدقات للفقراء) والله يقول الحق ويهدى من يشاء إلى صراط مستقيم .